- ٥ -

يُوْسُفُ بَين نَارِ التُّهْمَة وجَحِيْمِ السِّجْنِ

المهم في الأمر أن الخبر سرى من القصر إلى الشعب، إلى الناس فسمعت بذلك النساء، وقلن: -سبحان الله- ما تتقي الله، ما تخشى الله، أين الحياء، تراود فتاها، يعني: عبدها في القصر، في بيت العزيز، ولها مال ومنصب، فليس عندها ذرة عقل ولا حياء ولا رادع ولا ورع إذ راودت هذا الخادم، وسمعت امرأة العزيز أن النساء يمكرن بها، وأنهن يتحدثن في المجالس، وصارت هي فاكهة لذيذة في السمر، وسمعت ما يقلنه بها، فأرادت أن توقعهن فيما وقعت فيه وأن توقفهن على الحقيقة، فإما أن يقعن فيما وقعت فيه من الرغبة، أو يعذرنها؛ لأنها ما استطاعت أن تقاوم هذا الشيء ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ هذا أسلوب القرآن الراقي في اختيار الألفاظ والكلمات والعبارات، وترك الفواصل والشروح لنا نحن الضعفاء.

أي: مجلسًا كبيرًا وضعت صحون الفاكهة، وعلى كل صحن سكين. قالوا: أترج، وقالوا: تفاح، وقالوا: برتقال، لا يهمنا نوع الطعام، القرآن يأتي بالمقاصد فقط.

ثم أرسلت إليهن وحضرن في بيت الملكة، وجلسن وأعطت كل واحدة سكينًا وقالت لهن: تفضلن، وهي الآن معدة لهن مكرًا وسبحان الله، ما ذنب الشاب يوسف -عليه السلام-؟ شاب أعزب

وغريب، ولا زوجة، وجميل وذكي وتقي ومع ذلك عندما قال أريد الله والدار الآخرة حفظه الله سبحانه وتعالى.

جلست في المجلس، ورحبت بهن، ودار الطيب، وقدمت الفاكهة، وقالت: كلوا. والآن تأتيك الداهية من وراء الستار، حين تقول: اخرج؛ لأنه في عداد الخدم في القصر، فهي تدبر عليه، ولكن الواحد الأحد معه، فإذا كان الله معك فلا تخشَ أحدًا.

وزعت الفاكهة، والنسوة بدأن يتفكهن الواحدة تقطع الأترجة أو التفاحة سمها ما شئت، أرسلت امرأة العزيز ليوسف، وقالت: تريد غرضًا. فتح الستار -عليه السلام- ومر في غرفة أخرى مرور الكرام، فقط رأين الوجه الذي هو أجمل من القمر في الليلة الرابعة عشرة، سبحان مَنْ صَوَّره وأعطاه الجمال، بدأت الأنظار تصل إليه، ورأين الجمال، وهذه الصورة الحسنة التي لم يخلق الله مثلها أبدًا، فصارت المرأة تقطع يدها بدلاً من الأترجه، تجرح يدها ولا تجرح الأترجة، ودُهشن وذهلن وذهبت عقولهن، قال: ﴿**وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ**﴾ قال: دُهِشن وذُهِلن وطارت عقولهن ونسين من الدهشة والذهول الألم، فوقعت السكين في يد كل واحدة منهن، يقول بعض المفسرين: قطعن الأنامل وقطعن الكف لم يشغلهن الألم والدم، إنما ذهلن بالجمال والبهاء والصورة الحسنة.

لأن الإنسان إذا كان مشغولاً بشيء، أو إذا دهش بشيء لا يهمه شيء أبداً، ﴿**فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ**﴾، وفي بعض التفاسير قال: حُظْنَ، أي حاظت المرأة مكانها. هكذا قال المفسرون ذكر ذلك ابن الجوزي وغيره.

﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ يعني خدشنها بالسكين، ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾، في اللفظ قلن: معاذ الله ما رأينا مثل هذا الرجل في ديارنا، النساء لم يلدن مثل هذا الجمال، مثل هذا الحسن، سبحان الذي صور، سبحان الذي أعطى، سبحان الذي منح هذا البهاء وهذا الحسن وهذا الجمال، والله ما سبق لنا أن رأينا مثل، هذا سبحان الله، معاذ الله، ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾، هذا الذي نراه ليس من بني آدم، ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾، هذا منزل من السماء لم ينزل من الأرض، يوسف -عليه السلام- بشر ونبي، والله أعطاه الحسن امتحانًا وابتلاء، الله يعطيك الحسن لكي يرى هل حفظته؟ ويعطيك المال ليرى هل أنفقته في واجبه، ويبتليك في المنصب ليرى هل عبدته؟ ويبتليك بالعلم ليرى هل وزعته وأنفقته على الناس وعلمت الجاهل؟ وقلن: ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا﴾، هذا ليس من بني آدم لجماله، الناس لهم جمال، لكن هذا فاق الجميع، هذا على وجهه مسحة ملك.

قالت هي: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾، هذا الذي مال إليه قلبي وبلغ حبه شغاف قلبي، وأخذ لبي وروحي، فلا تلمنني إذا رأيتنني أهواه وأطارده، فهذا الذي وقع في قلبي، قلن: لا نلومك، ارتفع اللوم ما دام أنه بهذه الصورة، نحن فتنا به وقطعن أيدنا وجرحنا أيدينا من أول نظرة، وأنتِ لا تلامين وأنتِ ترينه صباح مساء، يا لها من فتنة!! أيصبح ويمسى بامرأة تلاحقه وتستخدم عليه الضغوط النفسية والمال والإغراء وتشكوه إلى زوجها، وتستخدم السلطة والمنصب والسجن والحبس ومع ذلك يصمد، إلا أن ينصره الله؛ لأنه مخلص لوجه الله عز وجل؛ لأنه منتصر بإذن الواحد الأحد.

يقول بعض المفسرين: سبحان الله، قصة يوسف من أولها لآخرها لا يوجد بها إسفاف ولو بكلمة، كلها طهر ونقاء وهو يتكلم عن مؤامرة،

وشهوة جنسية ورجل وامرأة، وأمور لو حصلت في قصة من قصصص الأدباء لبعثروا بها الحياء ونسفوا بها القيم ولذهبت بها الغيرة ولأراقوا فيها ماء المكرمات، لكن الواحد الأحد هو الذي نزل كتابه.

قالت: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾، والله لن يكون من الصاغرين، والله إن الصاغر هو من يعصي الواحد الأحد، ولو كان في بروج مشيدة، أمَّا الذي يتقي الله فهو كريم ولو ينام على الرصيف، ولو ما يجد كسرة خبز، ﴿وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ الآن اسمع الرد من النساء، ذهبن وأيديهن تقطر دماء لا أكلن فاكهة، ولا سلمت أيديهن، قالوا: نحن عذرناك بهذه الفتنة.

ذهبت إلى العزيز وقالت له: سمع الشعب ما دار بيني وبين الخادم، -اسمع المكر تبدأ بالمكر، وتنتهي بالمكر، وتحبك الكيد ضده وهو المظلوم والمفترى عليه- قال: ما الرأي؟ اسجنه حتى تسكت الشائعة، فأمر بسجنه، فلما سمع يوسف بذلك، قال: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾، يقول: ما دام كذا فإن السجن أحب إليَّ فيه أصلي، وأعبد ربي، فليسجنوني يارب، ليس من قوتك أن تكون عابدًا فالفضل لله، قال: رب أنا ضعيف بنفسي ما زلت أخشى الفتنة، وإلا تصرف عني كيدهن إن كيدهن عظيم، يأتينني بالفتنة والتهديد والإغراء إلا أن تصرف عني كيدهن، يا رب يا مصرف القلوب، اصرف قلوبنا إلى طاعتك، أخاف وأخشى من الفتنة وأخشاها، فأنت يا رب إن لم تمنعني وتحرسني وتحميني أصبو، يعني: أميل، أصبو إلى المرأة يعني أميل، صبا إلى الشيء مال إليه، أخشى مع طول الأيام الإغراء والفتنة أو ضعف إنسانيتي أن تغلبني المرأة فأضعف أمامها، هذا أن تجعل الحول والقوة لله

سبحانه؛ لأن كلمة لا حول ولا قوة إلا بالله أي: لا يحول بيننا وبين المعاصي إلا الله؛ ولا يقوينا على طاعة الله إلا الله. فيارب حل بيننا وبين المعاصي، قال: وإلا تصرف عني كيدهن أصبُ إليهن، أو أكن من الجاهلين. إن لم تمنعني وتحفظني سوف أقع في الفتنة، ﴿**أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ**﴾، فمن صبا إلى النساء وفعل الفاحشة فهو من الجاهلين، قال سبحانه: ﴿**فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ**﴾ سبحان من يستجيب دعوة الداعي، كلما يدعو الإنسان ربه لا يقل: دعوت ودعوت، أكثر من الدعاء وأكثر من الذكر، أبشر بالفرج من عنده سبحانه؛ لأنه وعد عباده أن يستجيب لهم، لكن من الواجب عليك أن تدعو، وأن تصدق، وأن تخلص.

﴿**فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾، اسمان جليلان عظيمان، السميع فهو يسمع من دعاه، فهو السميع العليم، الآن التجأ إلى الله، فصرف الله كيد النساء عن يوسف وانتهى الموضوع، رجعوا إلى القصر إلى القرار السياسي من العزيز مصر الملك. ﴿**ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ**﴾ رؤية القميص، والشاهد ومطاردتها والنساء ومكرهن، قال: أرى الأسلم أن يسجن لننهي هذا الأمر.

وسجن فترة طويلة، فلما وضع في السجن نادى ربه قال: يا مؤنسي في وحدتي، يا رفيقي في كربتي. اكشف غربتي، وأخذ يدعو الله وهو مسجون، والظاهر أن السجن كان جماعياً، ودخل رجل معه كان يسقي الملك الخمر، فأعطوه أجرة لِيَسمَّ الملك، فَعُرِف أمره، وأُدْخِل السجن مع يوسف، وأتوا بالخباز الذي يريد أن يَسُمَّ الملك في الخبز، قال الملك: اسجنوهما أيضًا مع يوسف، وكان

يوسف – عليه السلام- يصلي بهم ويدعوهم ويدرسهم في الصباح، وسوف يرسل أعظم رسالة في التوحيد ويعبر الرؤى، إنه أعظم سجين في التاريخ، فهو معبر العصر في تلك الفترة ومعلم السجن ومؤدبه، يقول أحدهم: رأيت رؤيا، فقال أحدهم ليوسف: أنا البارحة رأيت أني أعصر خمرًا للملك، وأني أقدمه له، وقال صاحب الخبز: وأنا رأيت أني أحمل فوق رأسي سلة خبز تأكل الطير منه، بالله نبأنا بالتأويل، فسر لنا الحلم، إنا نراك من المحسنين.

قيل: وجهك وجه الخير وأنت تبشر بمثل هذه الرؤيا. وقيل: لأنه كان يداوي المريض يقرأ على هذا، ويجبر خاطر هذا، ويعلم هذا.

قال: أنت محسن، وقيل: إذا أتته هدايا من الخارج يوزعها على جيرانه في السجن؛ لأن الإنسان الكريم يعرف حتى لو كان في الحبس، والبخيل يعرف حتى لو كان في قصر، فهو محسن. وقيل: نراك موحدًا لله عز وجل، إنك مؤمن به تحسن عبادته فنرجوك أن تفسر لنا الرؤيا، وما دام أننا نراك محسنًا أرجوك أن تفسر لنا هذه الرؤيا، ما الذي وقع علينا؟

قدم لهم مقدمة قال: الحمد لله، أنّا مَنَّ الله عليَّ في تعبير الرؤى، لا يأتيكما طعامًا ترزقانه إلا نبأتكم بتأويله، قيل: لا ترون طعامًا في المنام إلا نبأتكم في اليقظة. وقيل: لسوف أخبركم بما يأتيكم غدًا، وذلك من علم الله الذي علمني علم النبوه، فسأخبركم أنه سيأتي خبز ويأتي لحم. يعني: الله أطلعني على علم الغيب بما علمني من علم النبوه، فأنا لست بساحر ولا كاهن ولا منجم ولا مشعوذ، أنا أتحدث لكم بما علمني الله سبحانه، فأنا موحد، ذلكم مما علمني ربي، ليس من علم نفسي.

﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾، وهو هنا بدأ رويدًا رويدًا مع المسجونين؛ لأنهم وثنيون حتى يردهم إلى العقيدة لكن برفق، بدأ درجة درجة، ثم بَيَّنَ لهم ماذا علّمه من علم الغيب الذي علمه الله، ثم يعلمهم عن آبائه أنهم أنبياء مهتدون، ثم يُوَصِّل إليهم أن الله الواحد الأحد متفرد، ثم يقول: وأنتم على ضلالة وأفضل من هذا كذا وكذا، وأنا أرى الأفضل كذا، ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾، قيل: إنه يقصد أهل القصر؛ لأنهم كانوا وثنيين لا يؤمنون بالله، فأنا تركتهم بالقصر وجئت إليكم هنا، وهم بالآخرة هم كافرون.

فأراد - عليه السلام - أن يبين لهم هذه القضية الكبرى، وهي توحيد الله، هم الآن يسألون عن رؤى إنسان يعصر خمرًا وإنسان على رأسه خبزًا، فيخرج -عليه السلام- من السياق والموضوع ويدخل في التوحيد والرسالة؛ لذلك فالداعية يدعو إلى الله ولو كان في الحديد والزنزانة.

يا أيها السجناء، قبل أن أفتيكم بالخمر والخبز لا أفتيكم حتى تسمعوا مني، أنا لا أعبر الرؤيا حتى أخبركم بقضية تشيب الرؤوس لها، وخلق الله الخلق من أجلها، إنها التوحيد والإيمان بالله واليوم الآخر، آباؤه والله أحسن الآباء، هو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، هو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، قال: إبراهيم؛ بدأ به لأنه أفضلهم، لأنه إمام التوحيد -عليه السلام- ومدحه الله في القرآن وهو أمة وحده، يسمونه عابد الرحمن، ومكرم الضيفان، ومحطم الأوثان، هذا إبراهيم له روغتان في القرآن، فراغ عليهم روغًا باليمن، يعني: حطم الأوثان،

ولما جاءه الملائكة الضيوف راغ إلى أهله فجاء بعجل سمين، فهو شجاع كريم، والشجاع مُساعَدٌ، والكريم معان من الله. هذا إبراهيم. ثم ذكر ابنه واسحاق؛ ويعقوب أبا يوسف معبر الرؤى، واتبعت ملة آبائي، وذلك ﴿**مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ**﴾ يقول: والله لا يحق لنا وما فعلناه ولا يمكن لنا أن نشرك بالله، قبل أن أفسر لكم الرؤيا يالأسف إنكم مشركون، وهو هنا يدعو إلى أصل الإيمان، وأصل الرسالة والحياة الذي هو التوحيد، ثم قال: الحمد لله أنا وآبائي ما أشركنا بربنا طرفة عين، هذه أحسن ترجمة تقدم للإنسان، إنه موحد وعَبْدٌ لله، ثم قال: هذا من فضل الله علينا وعلى الناس. ويوسف وقف هنا وقفة عظيمة.

مشركون معه بالزنزانة ويدعوهم إلى التوحيد، الله شرفه بدعوة التوحيد، انظر إلى دعوة الأنبياء مع الناس بالرفق واللين حتى يتوصلوا إلى غرضهم، ويقول: إني اتبعت ملة آبائي، يقولون: يسمّون الجد أبًا، إبراهيم، وإسحاق المسمى هو يعقوب بن إسحاق ابن إبرهيم وكلهم على التوحيد، وكل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يدعون إلى ملة واحدة الإسلام.

فالدعوة إلى التوحيد واحدة، بَيْد أن الاختلاف في الشرائع، وفي العبادات، والحدود تختلف من شريعة إلى شريعة، وكلهم مجمعون على لا إله إلا الله وعلى اليوم الآخر.